الورد وماء الورد بدمشق

بقلم حبيب زيّات

من خصائص دمشق الورد والماء الذي يُستقطر منه قال العمري في كلامه على دمشق : « والى وردها وبنفسجها النهاية حتى انه عطّل وردها وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جور ونصيبين وماء الورد ينقل الى غالب البلاد»[1] وقد اشار بعض زوّار الفرنج الى هذه المزيّة فقال:«ورد دمشق لا نظير له وله عطر يفوق ما عندنا»[2] وقال آخر:«بدمشق ورد ابيض لم ارَ له مثيلاً.»[3]

ولم يذكر البدري من انواع الورد بدمشق الا ستة فقط واستثنى الاسود ولكنه عاد فعدّ الاسود منها وهي : الابيض والاصفر والاسود والقحابي والجوري والأصفر المطبق والحق بها اخيرًا الورد النسريني[4] وضرب صفحاً عن الاسود فلم يصفه بشيء. وهو ما يدل على انه لم يكن معروفاً بدمشق ولذلك قال ابن الساعاتي الدمشقي في مغنية سوداء تدعى وردة :

سوداء حالكة تُلقَّب وردة وعجيبة الايام ورد اسود[5]

واقتصر البدري من تعريفه على ايراد بيتين للشريف الرضي في وصف ورد اسود :

وورد اسود خِلناه لما تضوّع نشره ملك الزمان
مداهن عنبر غضّ وفيها بقايا من سحيق الزعفران[6]

وروى السيوطي البيتين الآتيين فيه لابي احمد الطرازي :

١) مسالك الابصار ، خزانة باريس ٢٣٢٥ ، ص ١٦٦
٢) JEAN THENAUD : *Voyage d'Outre Mer*. Paris, 1888.
٣) *Voyage de Ludovic di Varthema*, Paris, 1888, p. 15.
٤) محاسن الشام ١٠٤—١٢٠
٥) ديوانه ١ : ١٢٤
٦) محاسن الشام ١١٦

قد اسود ورد ظل يلحظنا   من الرياض باحداق اليعافير
كأنه وجنات الزنج نقّطها   كف الامام باصناف الدنانير (١

ولعله لم يوجد في الحقيقة الا في مخيلة الشعراء.

والقحابي من الورد ما كان ظاهره اصفر وباطنه احمر كما يستدل من قول ابي بكر الخالدي :

وردة بستان قحابيه   زينت من الحسن بنوعين
باطنها من قشر ياقوتة   وظهرها من ذهب عين (٢

ولكن جاء في كتاب «شدّ الظهر لذكر ما يُحتاج اليه من الزهر» ليوسف ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩/١٥٠٣ وهو من مخطوطات خزانتي بقلم مؤلفه : الورد القحابي منه اصفر الداخل والخارج. ومنه احمر الداخل والخارج . ومنه احمر الداخل اصفر الخارج . وكله لا ينتفع به غير النظر » ولعله وهم في عدّه النوعين الاولين من الورد القحابي لان القحابي ما كان ذا لونين . وما كان لوناً واحداً كالذين وصفهما كان احق ان يُعدّ في جملة الاصفر والاحمر . وقد فاته ما كان اصفر الباطن احمر الظاهر اي عكس النوع الذي شبّهه الخالدي بالذهب الاصفر فوق الياقوت الاحمر. وقد اشار الى مثله ابن المعتز بقوله :

وذي لونين نشر المسك فيه   يروق بحمرة فوق اصفرار
كمشوقين ضمّهما عناق   على حدثان عهد بالمزار

فجعل الحمرة فوق الصفرة.

واجود الورد بدمشق واذكاه عطراً هو الجوري نسبة الى جور مدينة في فارس . وربما قيل لهُ النصيبي نسبة الى نصيبين ويعرف اليوم بدمشق بالورد البلدي وهو احمر دائماً . وفي الكامل لابن الاثير انه كان يسمى الورد « الكاسكاري » نسبة الى دهقان بنواحي مرو و«القصراني» نسبة الى قصران قرية بالريّ و« الجوري » (٨ : ٣٧)

واكثر ما كان يُغرس الورد قبلاً في بلدة الزبداني ولذلك سمّاها البدري

١) حسن المحاضرة ، طبعة الموسوعات ٢ : ٢٣٩
٢) محاسن الشام ١١٧

« قلعة الورد » . ومثلها المزّة وهي معدنه قديماً اشتهرت بكثرة ما يُستخرج منه فيها . وفيما عدا هذين البلدين كان الورد كما وصفه احد من زار دمشق في النصف الاول من القرن السابع عشر وهو الاب برناردَن سوريوس شديد الانتشار في البساتين والحقول والجبال يعبق الهواء بعرفه الطيب وله محصول وافر حتى انه يباع حمل جمل منه بقرش واحد (اي بما يقرب وقتئذٍ من قيمة فرنكين ذهباً patagon) قال :« وسكان الجبال يحملون منه يومياً الى السوق نحواً من مئة جمل ويكدسونه اكداساً كالتبن . وللاتراك (اي للسلمين) شغف به شديد يزينون به عمائمهم وغرفهم وفرشهم وموائدهم وطاقات منازلهم ويبسطونه في بيوتهم في ارتفاع ثلاثة او اربعة اقدام وينغمسون فيه الى حد اعناقهم ويتقلبون فيه بغاية من التلذذ والطيب »[1]

ومن السنين التي كثر فيها جنى الورد ورخصت اسعاره حتى استرعت نظر المؤرخين سنة ٧١٩/١٣١٩ قال المفضَّل بن ابي الفضائل : « في ربيع الاول أُبيع الورد بدمشق كل عشرة ارطال بدرهم ونصف . وهذا شيء لم يعهد من رخص الورد خصوصاً في نيسان »[2]

وكان لزهر الورد او لازراره كما يقولون تجارة واسعة اضمحلت اليوم ولم يبقَ الا ظلّ منها ضئيل « يحمل زهر الورد المزّي الى الهند والى بلاد السند والى الصين والى وراء ذلك ويسمى هناك الزهر . ومما ارّخوه انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى « شور الزهر » طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة . اباع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٦/٧م) وهذا لم يسمع بمثله »[3] وكان لماء الورد الدمشقي شهرة طائرة ايضاً في اروبة حتى كانوا يحرصون على تقليده فيما لرغبة الملوك والعظماء به [4]

(1 *Le Pieux Pèlerin au voyage de Jérusalem* par le R. P. Bernardin Surius. Bruxelles, 1666, p. 337.

٢) النهج السديد ، باريس ١٩٢٠ ، ص ١١٨

٣) نخبة الدهر لشيخ الربوة . طبعة بطرسبرج ١٩٤–١٩٨

(4 W. Heyd : *Histoire du Commerce du Levant*. II, p. 458.

ومن غشّ بيع ازرار الورد ما حكاه ابن الحاج قال : « يشترون الورد فيزيلون عنه بعض الورق الذي دوته فيصغر الزر بذلك ويبيعون ما اخرجوه من الورق بزيادة في الثمن للمتسبّبين في الناطف وغيره ويبيعون ما بقي منه على الزر بسعره صحيحاً قبل ان يؤخذ منه شي. »[1]

واهم ما كان يغرس الورد لاجل استقطاره واستخراج مائه المشهور. وكان ما يُجلب من مائه للقاهرة ومكة وغيرهما من البلاد يُستخرج خصوصاً في الزبداني[2] وفي المزّة . وقد وصف شيخ الربوة طريقة اخراجه في الكركات في المزّة فقال : « تُلقى حُراقته على الطرقات وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون الذ من المسك الى مدة انقضاء الورد... ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك »[3]

وبعد هذه الشهادة الصريحة يُستغرب جداً قول ابن المبرد في كتابه المخطوط «شد الظهر» المذكور آنفاً : ومن« الاحمر ايضاً الجوري ويقال له المزّي وهو شديد الحمرة ولا رائحة له ولا يعمل منه شي. غير انه يُيبّس ويعمل منه زرّ ورد » فهل اختلفت غراس المزة في القرن التاسع للهجرة ؟ وعنده ان ماء الورد كان يستخرج في زمانه من الورد الابيض المضعف . قال :« وهو كثير الورق طيب الرائحة لطيف ابرد والطف من الاحمر . ويستخرج منه ماء يقال له ماء الورد بلدي جيد للاورام الحارة والرمد الحار ».

ومن القاهرة كان يرسل ماء الورد على الظهر الى السويس ويصل بعد ثلاثة ايام فيُحمل من السويس في سفن صغار تسمّى جَلبات الى جدّة وينقل منها في المراكب الى قاليقوط في الهند في جملة البضائع التي كانت تشحن اليها لقاء ثمن ما كان يرد من الهند من الافاويه والعطور »[4]

وكان استعمال ماء الورد والتطيّب به قد عمّ الشرق حتى بلغ زيلع ومقدشو

١) كتاب المدخل ٣ : ١٢٥

٢) محاسن الشام ١١٨

٣) نخبة الدهر ١٩٤

٤) *Historia do Descobrimento e conquista da Yudia pelos Portugueses.* (Journal Asiatique, Juillet-Septembre 1920, p. 18).

من بلاد البرارة السودان. ولما زار ابن بطوطة مقدشو قال: «خرج بعض الفتيان (من دار السلطان) وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليَّ وعلى القاضي»[1]

ولا شك ان استعمال ماء الورد كان شائعاً بدمشق قبل قدوم العرب والامويين. وكان في عهد العباسيين يُصبّ على ايدي الاضياف والمترفين وهو ما ذكره الصابئ في كلامه على جلساء الوزير ابي الحسن علي بن الفرات وكتّابه اذا انتهوا من الطعام. قال: «ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون ايديهم والفراشون قيام يصبّون الماء عليهم والخدم وقوف على ايديهم المناديل الدبيقية ورطليات[2] ماء الورد لمسح ايديهم وصبه على وجوههم»[3] ووصف ابن مسكويه اجتماع البريدي بياقوت سنة ٣٢٤ فقال: «انزله داره وخدمه بنفسه وقام بين يديه الى ان طعم وغسل يديه فناوله الماورد والمنديل وبخّره بيده.»[4] وعدّ ابن الحاج هذه العادة في زمانه من البدع فقال: «من البدعة بل المحرّم ما يفعله بعض الناس من غسل الايدي بماء الورد وتنشيفها بالمناديل والفوط الحرير»[5]

وحكى الاب برناردَن المذكور آنفاً ان اهل دمشق اعتادوا غسل رؤوسهم ولحاهم وايديهم بماء الورد وتقديمه لضيوفهم في جملة مــا يخصونهم به من انواع الاكرام والالطاف.

وقد ضرب المتنبي ماء الورد مثلاً للخلف يقوم مقام السلف فقال في مديح علي بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمي:

فان يكُ سيّار بن مكرمٍ انقضى ... فانك ماء الورد ان ذهب الورد

ولمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي جزء سمّاه «عرف الند في ما قيل في الورد[6]».

---

١) رحلته ١: ١٥٢

٢) الرطلية اناء يسع رطلاً كالألفيّة المعروفة اليوم بدمشق لاشتمالها على مقدار الف درهم وقد وردت قديماً بهذا المعنى كقول الجهشياري: دعا له برطلية جُعلت بين يديه (كتاب الوزراء والكتاب ٢٦١) وقول ابن مسكويه: وحمل اليه صينية اخرى فيها رطلية بلور فيها شراب مطبوخ عتيق » (تجارب الامم ٥: ٢٥٩).

٣) تاريخ الوزراء ٢٤٠

٤) تجارب الامم ٥: ٢٤٣

٥) المدخل ١: ١٩٣

٦) الفلك المشحون في احوال محمد بن طولون ٤١